

مفتاح شخصيته

مفتاح الشخصية هو الأداة الصغيرة التي تفتح لنا أبوابها، وتنفذ وراء أسوارها وجدرانها، وهو كمفتاح البيت في كثير من المشابه والأغراض، فيكون كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب، فإذا عاجلته بها فلا حصن ولا إغلاق!

وليس مفتاح وصفًا له ولا تمثيلًا لشكله واتساعه، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصق لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دخالها ولا تريد.

وكل شخصية إنسانية مفتاح صادق يسهل الوصول إليه أو يصعب على حسب اختلاف الشخصيات... وهنا أيضًا مقارنة في الشكل والغرض من مفاتيح البيوت. فرب بيت شامخ عليه باب مكين يعالجه مفتاح صغير، ورب بيت ضئيل عليه باب مزعزع يحار فيه كل مفتاح.

فليست السهولة والصعوبة هنا معلقتين بالكبير والصغير، ولا بالحسن والدمامة، ولا بالفضالة والنقيصة، فرب شخصية عظيمة سهلة المفتاح، ورب شخصية هزيلة ومفتاحها خفى أو عسير.

وقد ييحيينا الرجل الذي قيل في وصفه مثل ما قيل في ابن عباد:

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت يدها بالجود حتى شابه الديما^(١)
فإنها خطوات من وساوسه يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

فإننا لا نستطيع أن ننفذ منه إلى مواضع اللوم أو مواضع الثناء، ولا ندرى حقا عمله من الكرم أم من البخل، ومن الرفعة أم من الخسة، ومن الشجاعة المحمودة أم من الجبن المذموم؟ وغاية ما ننهي إليه أن نفرض المشكلة

(١) الديم: جمع ديمة، وهي السحابة المطيرة.

بكلمة واحدة هي الوسواس وهي حيلة تلجئنا إليها قلة الحيلة، لأن تفسير الأعمال بالوسواس يفيدنا في تقدير صاحبها وتقدير أعماله وأخلاقه، ولكنه تفسير له معنى واحد في النهاية: وهو ترك التفسير.

قد تحيرنا هذه الشخصية المنقوصة ولا تحيرنا الشخصية الكاملة التي تروعنا بفضائلها ومزاياها، ثم لا نستغرب منها فضيلة أو مزية بالقياس إلى انتظام عملها واتصال أثرها، كالشمس الطالعة تروعنا بإشراقها في أوقاتها وبروجها، ثم لا تحيرنا عين كما تحيرنا الذبالة الضئيلة تومض لحظة وتختفي من بعيد.

وفي اعتقادنا أن شخصية عمر من أقرب الشخصيات العظيمة مفتاحاً لمن يبحث عنه، فليس فيها باب مضل الفتح وإن اشتملت على أبواب ضخام.

وقد ذكرنا في الفصل السابق أن إيمان عمر هو الضابط الذي يسيطر على أخلاقه وأفكاره كما يسيطر على دوافعه وسوراته، ولكن الذي نريده بمفتاح شيء آخر غير معرفة الضابط الذي يسيطر عليها: نريد السمّة^(١) التي تميزه بين العظماء حتى في الإيمان وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والسورات، فإن الإيمان ليقوى في نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس، وهنا نبحت عن "مفتاح الشخصية" لنعرف به الفارق بين الإيمان في طبيعة عمر وبين الإيمان في طبائع غيره من الأقوياء.

والذي نراه أن "طبيعة الجندي" في صفها المثلى هي أصدق مفتاح للشخصية العمرية" في جملة ما يؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظيم.

فأهم الخصائص التي تتجمع "لطبيعة الجندي" في صفها المثلى للشجاعة والحزم والصراحة والحشونة والغيرة على الشرف والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والإيمان بالحق وحب الإنجاز في حدود التبعات أو المسؤوليات.

(١) السمّة: العلامة الشارة المميزة.

هذه الخصائص قد تجمعت بعد ألوف السنين من تجارب الأمم فى تعبئة الجيوش حتى عرف الناس أخيراً أنها لازمة للجنجى فى أمثل حالاته. فما من خاصة منها يستغنى عنها الجندى الكامل الذى تحلى بأجمل صفاته وألزمها لتحقيق وجوده.

فانظر إلى هذه الخصائص جميعها هل تجدك محتاجاً إلى التنقيب طويلاً عن واحدة منها فى نفس عمر؟ هل تجدك محتاجاً إلى عمل أو استقصاء لجمع أشتاتها والاهتداء إلى شواهدا ومواقعها؟

كل هذه الخصائص عمرية لا شك فيها. فهو الشجاعة، الحازم الصريح، الحشن، المطيع، الغيور على الشرف، الشريع النجدة، المحب للنظام، المؤمن بالواجب والحق، الموكل بالإنجاز، العارف بالتبوعات والمسؤوليات.

هذه الخصائص واضحة كلها فى عمر، وعمر وحده واضح بين أمثاله فى جميع هذه الخصائص، حتى ليخيل إلينا لو أن أحداً مولعاً بتأليف الألغاز سأل عن عظيم فى الإسلام والعروبة متصف بجميع هذه الخصائص على أصدق وأبرز حالاتها لكان الواجب الواحد عن سؤاله اسم عمر بن الخطاب.

وقد يكون العجب من توافر هذه الخصائص فى تفرعاتها الثانوية وأشكالها العارضة أبلغ وأدل على العمق والتأصل من توافر الخصائص التى هى بمثابة الأصول الجامعة فى طبائع الجنود.

فالنظام مثلاً ليس بالخلق الأصيل فى الجندى الباسل، فقد ينساق إليه بطبعه وقد يحتاج إلى تعودة وإدمانه حتى يكسبه بطول المرانة.

لكن النظام كان خلقاً أصيلاً فى طبيعة عمر حتى فيما يتفرع عليه ويدخل منه فى عداد الأشكال والنوافل^(١).

(١) النوافل: جمع نافلة، وهى الزيادة.

أرأيته وهو يصلى بناس فلا يكبر حتى يسوى الصفوف ويوكل رجلاً بذلك؟ أرأيته وهو يرى الناس يجتمعون بالمسجد فى شهر رمضان أوزاعاً متفرقين حول كل قارىء فىأمرهم أن يجتمعوا إلى قارىء واحد؟ أرأيته وهو يحمل الدرّة لسينبه المخالفين فى الطريق ويذكرهم هيبه القانون؟ أرأيته وهو يركب فى السوق فيكسر ما برز من الدكاكين ويخفق التجار بالدرّة إذا تكوفروا^(١) على الطعام وقطعوا طريق السابلة؟ أرأيته وهو لا يزال يأمر بالثاعب^(٢) والكنف^(٣) أن تقطع عن طريق المسلمين؟ أرأيته وهو ينهى الولاة عن الاتكاء فى مجالس ويكتب إلى عمرو بن العاص " وقع إلى أنك تتكىء فى مجلسك، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تنكىء!"

بل أرأيته وهو يرمى المراتب فينزل درجة من سلالم المنبر بعد أبى بكر لأن الخليفة الأول أحق منه بالتقديم؟

ذلك هو السمى العسكرى بالفطرة التى فطر عليها، وليس هو السمى العسكرى بالأسوة والتعليم.

والفطرة التى فطر عليها كان يحب ما يحسن بالجندى فى بدنه وطعامه، ويكره ما ليس بالمستحسن فيه، فكان يقول: " إياكم والسمنة فإنها عقلة^(٤)، وكان يقول: " إياكم والبسطة فإنها مكسلة عن الصلاة ومغدة للجسم ونؤدية إلى القسم وعليكم بالقصد فى قوتكم فهو أبعد من السرف أصح للبدن وأقوى على العبادة" وكان يأمر بالجد ويحذر من المهازل لأن " من كثر ضحكته قلت هيئته، ومن كثر سقطه^(٥) قل ورعه". وكان يمشى " شديد على الأرض جهورى الصوت" كما يمشى الجنود وكما يتكلمون، وكان يأمر بتعلم الرماية

(١) تكوفروا على الطعام: اجتمعوا عليه. (٢) الثاعب: مسایل الماء.

(٣) الكنف: جمع كنيف هو الحظيرة من الخشب أو الشجر تتخذ للإبل والغنم لتقيها الحر والبرد.

(٤) العقلة: القيد والعقال. (٥) السقط: الخطأ من القول والفعل.

والسباحة والفروسية والمصارعة وكل رياضة يتدرب عليها الجندي وتهذب بها الأبدان والأخلاق.

وإذا ارتقينا من هذا النظام الأشمل والتقسيم الأعم والأكمل فهناك عمر بن الخطاب الذى دون الدواوين وأحصى كل نفس فى الدولة الإسلامية كأدق إحصاء وعاء الموكلون بالتنجيد فى العالم الحديث. فما من رجل أو امرأة أو طفل إلا عرف اسمه وعرف مكانه وعرفت حصته من بيت مال المسلمين. وما من مجاهد إلا عرفت له رتبته من السبق والتقديم على حسب المراتب التى يمتاز بها الجنود.. فالحاضرون وقعة "بدر" هم المقدمون بين المجاهدين، والحاضرون فى "الحديبية" يأتون بعدهم فى التقديم، والذين اشتركوا فى حرب الردة بعد هؤلاء وهؤلاء، والذين حاربوا فى معارك الروم والفرس ومعهم أبناء الغزاة فى بدر يلحقون بمراتب هؤلاء المتقدمين، وقس على ذلك ما يليه من سائر المراتب فى حقوق التقديم والتقسيم.

ثم هناك عمر بن الخطاب الذى عشر الجنود أى جعلهم عشرات عشرات، ثم قسمهم إلى كتائب وبنود.

وهناك عمر بن الخطاب الذى لم يدبر قط تدييراً كبيراً أو صغيراً فى شئون الدولة إلا بنظام لا يختل أو على أساس لا يعيد.

وقد كانت له طريقة الجند فى التصريف السريع الذى ينفذ إلى الغرض من أقرب طريق، فلما تشاور المسلمون فإذا يصنعون سهيل بن عمرو، خطيب المشركين يومئذ وأقدر الخائضين منهم فى الإسلام، قال عمر بن الخطاب: "يا رسول الله! انزع ثنيتيه^(١) السفلين فلا يقوم عليك خطيباً أبداً". وكان سهيل أعلم - أى مشقوق الشفة السفلى - فإذا نزع ثنياه فقد عجز عن الخطابة من غير ما حاجة إلى عهد أو تحذير أو شغل شاغل بإسكاته والرد عليه.

(١) الثنية: من الاسنان، جميعها ثنيا وثنيات، وفى الفم أربع.

والقضاء لم يكن من لوازم "الطبيعة الجندية" وإن تولاه القادة والجند
ففى أيام الفتن والأيمان التى تقام فيها الدول الناشئة والنظم الجديدة.

ولكن كم قضية لعمر بن الخطاب تذكرنا بالقضاء العسكرى التى يمنع
الضرر من أقرب الطرق ويحمى الأكثر بالحد من حقوق الأقلين؟

هتفت امرأة باسم نصر بن حجاج وتمنت أن تشرب الخمر وتلقاه فأرسل
إليه " فإذا هو أحسن شعراً وأصبحهم وجهاً. فأمره أن يجسم (١) شعره، فظهر
جبينه ووجتته فازداد حسناً، ثم أمره أن يعتم فزادته العمامة زينة وغواية،
فقال: لا يسكن معى رجل تهتف به العواتق (٢) فى خدورها، وزوده بمال
وأرسله إلى البصرة ليعمل فى تجارة تشغله عن النساء، وتشغل النساء عنه.

وفى القضية جور على نصر بن حجاج لا جدال فيه، ولكن فى سبيل
مصلحة أكبر وأبقى، أو فى سبيل مصلحة يراها "الحكم العسكرى" فى
أزمة كزمان عمر، ويقضى فيها بما هو أعجب من إقصاء نصر بن حجاج،
يرعاها أحياناً يمنع الإقامة بمكان، ومنع المرور عن طريق، وتحريم تجارة لا
حرام فيها، ومراقبة إنسان يخشى أن يقود إلى جريمة، وتقييد السهر بعد
موعد من الليل.

ولسنا نقول إن هذا الحكم فى قضية نصر بن حجاج كان حكماً لزاماً لا
محيص عنه ولا مأخذ عليه، ولكننا نقول إنه حكم فيه تلك الصبغة العمرية
التي سميها "مفتاح شخصيته" وهى المقصودة بما نكّبه الآن.

وقد كان له فى قضائه ذلك الحزم الذى يقطع اللجاجة (٣) وينهض
بالحجة على كل ذى خلاف كلما اشتجر (٤) الخلاف: كتب إليه أبو عبيدة من
دمشق أن عمر ابن معد يكرّب وأبا جندل وضراراً وجماعة من عليه القوم

(٢) العواتق: جمع عاتق وهى الشابة الصغيرة.

(١) يحم شعره: يقصره.

(٤) اشتجر: تنازعا.

(٣) اللجاجة: تمادى الخصمين.

والوجوه شربوا الخمر سئلوا فأجابوا "إننا خيرنا فاخترنا. قال: "هل أنتم متتهون" ولم يعزم^(١). . . وكان أبا عبيدة تخرج من عقاب هؤلاء العلية فرفع أمرهم إلى الخليفة يستفتيه، فلم يلبث البريد أن بلغ المدينة حتى عاد إليه يأمره أن يدعوهم على رؤوس الأشهاد ويسألهم سؤالاً لا يزيد عليه ولا ينقص منه: أحلال الخمر أم حرام؟ فإن قالوا حرام خليجلدهم، وإن قالوا حلال فليضرب أعناقهم. فقالوا: بل حرام، فجلدوا وتابوا.

وربما تجمع للرجل كل ما فى "طبيعة الجندى" من الخصائص وبقية محبوسة فيه لا يدري بها الناس إلا أن يأتى بعمل ينم عليها، فدين نفسه بطبيعته تلك ولا يدين غيره، ويكون مطبوعاً على أن يطيع ولا يكون مطبوعاً على أن يطاع، وإذا جاءت طاعة المطيعين له فإنما تجيئه من سلطان النظام وحكم الشرع وغلبة العادات، لأن الشجاعة مثلاً لا تلازم الهيبة فى كل حال، فقد يكون الشجاع مهيباً ويكون غير مهيب أحياناً ممن تقتحمهم الأنظار ويجترىء عليهم المستخفون.

أما عمر بن الخطاب فقد كانت له "طبيعة الجندى" ظاهرة باطنة، تبادر القلوب كما تبادر الأنظار، وتلازمه كأنها عضو من أعضائه، فما يجترىء عليه مجترىء إلا أن يطعمه هو، ويسهو عن نفسه لحظة ليغرية بالاجتراء.

وهى فى موقف الأمر تخيف من لا يخاف ويجفا منها من يحتمى بجاه أو كبرياء. شكا إليه رجل من بنى مخزوم أبا سفيان لظلمه إياه فى حد كان بينهما، فدعا بأبى سفيان والمخزومى وذهبوا إلى المكان الذى تنازعه، ونظر عمر فعرف صدق الشكوى ونادى بأبى سفيان: خذ يا أبا سفيان هذا الحجر من هنا فضغه هنا. . . فأبى وتردد، فعلاه بالدرة وهو يقول: خذه فضغه هنا فإنك ما علمت قديم الظلم، فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعته حيث قال، ولو

(١) لم يعزم: لم يحدد حكماً قاطعاً، وعزيمة الله، فريضته التى افترضها.

غير عمر أمره هذه الأمر لاستكبر أن يطيع أو شنها عليه شعواء لا تؤمن جريرتها.

كان يوماً^(١) في مجلس عمر وزياد بن سمية^(٢) يتكلم وهو يومئذ شاب، فأحسن كعاداته في مجال الخطابة والمشورة، فأعجب به عمر وهتف به: لله هذا الغلام! لو كان قريشاً لساق العرب بعصاه.

وكان على بن أبي طالب إلى جانب أبي سفيان، فمال إليه هذا وهمس في أذنه كلاماً فخواه أنه يعرف من أبو ذلك الغلام من قريش. قال على: فمن؟ قال: أنا.. قال فما يمنعك من استلحاقه؟ فهمس له: أخاف هذا الجالس أن يخرق على هابي!^(٣)

وخليق بمثل هذا الرجل ألا يكون له شعار غير شعار الحند حيث كانوا: الأمر والأمر، والطاعة هي الطاعة.

وخليق بالناس أن يفهموا ذلك عنه بغير بيان، لاسيما إذا فهموا قبل ذلك أنه متى وجبت الطاعة كان هو أول من يطيع. ذلك هو الجندي المطبوع.

جندي من جنود الله في معترك الحق والإيمان. وإذا استوفينا المثل إلى أقصاه فالقانون المطاع هو القرآن، والقائد الأعلى هو النبي الذي يوحى إليه، وليس أحد بعد ذلك أكبر من أن يطيع. يأمر الله فالطاعة واجب لا هوادة فيه.

ويأمر القائد الأعلى فقد يراجعه من دونه ويرتفعان معاً إلى القانون، لأن الطاعة لا تمنع المراجعة والمشاورة، ولكنها تمنع التمرد على القائد الأعلى

(١) أي أبو سفيان.

(٢) اشتهر باسم "زياد بن أبيه" ولم يكن معروف الأب، وفي عهد معاوية، شهد ناس من المسلمين أنه ابن أبي سفيان معاوية "أي اعترف به أخاً له" وولاء البصرة. اشتهر بالذكاء وسعة الحيلة والخطابة.

(١٣) الإهاب: الجلد.

وإنما سلطانه حيثما استقر على قرار، فإذا رجع القائد عن أمره فحس، والمراجعة إذت خير لا ضرر فيه، وإذا مضى في أمره فلا خوف إذت فيما يجب: فالذى يجب إذن واحد، وهو أن يطاع.

كذلك راجع عمر النبي في مسائل شتى، فأخذ النبي برأيه في بعض هذه المسائل وخالفه في بعضها، فلم تكن طاعته فيما خولف فيه أقل ولا أضعف مما ووفق عليه.

وكذلك راجع الخليفة أبا بكر في كبريات المسائل وصغارها، فكان أبو بكر يثوب^(١) إلى رأيه كثيراً، ويصر على ما بدا رأى الحسنى فى الإصرار، فيطيع عمر أمره بعد ذلك كأن لم يكن خلاف.

وإذا امتنعت المراجعة فليس الرجل عند ذلك بواهن عن احتمال التبعة، وتصريف رأى، والاضطلاع بأعباء الموقف كيف كان.

اشتد المرض بالنبي عليه السلام فقال: اتتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده.. قال عمر: إن النبي ﷺ غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسينا.

عندنا كتاب الله حسينا.

عندنا القانون الأعلى.

أما القائد الأعلى فهو فى مرضه بحال لا تستحب معها المراجعة، وهو مع ذلك لم يصر على أمره ولم يعاود طلب الورق للكتابة، وإنما قال حين كثر اللغط بين الصحابة: قوموا عنى. ولا ينبغي عندى التنازع، ثم عاش عليه السلام أياماً ولم يذكر الكتاب.

فالرجل يطيع إذا استقام الأمر واستقرت التبعة.

(١) يثوب إلى رأيه: يرجع إليه ويأخذ به.

وكان يراجع إذا اتسع مجال المراجعة .

فإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو ضليع بالتبعية التي يوجبها على نفسه،
وقمين أن يذهب إليها ولا ينكل عنها .

وتلك سنة جرى عليها عمر عن علم وقصد، ولم يجر عليها عن بداهة
والهام وكفى، وأشار إليها في كلامه غير مرة في خطبة من خطبة ما فحواه:
(.. كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخدامه وجلوازه^(١))، وكان كما
قال الله تعالى: "بالمؤمنين رؤوف رحيم"، وكنت بين يديه كالسيف المسلول،
إلا أن يغمدني أو يتهانى عن أمر فأكف عنه، وإلا قدمت على الناس لما كان
أمره..". فهو جلواز النبي وسيفه المسلول كما وصف نفسه.

وهو على أقوم مثال للجندي الفاضل العليم بموقع الطاعة، وموقع
المراجعة، وموقع المشاورة، وهو مع التبعية حيث لا مهرب منها، وتلك وهي
الجندي في صورتها المثلى.

وما نحسبه كان يراجع ويشاور إلا لغرض واحد، وهو الوصول إلى
الأمر الذي وما نحسبه كان يراجع ويشاور إلا لغرض واحد، وهو الوصول
إلى الأمر الذي يحمل التبعية فيه.

فإذا ألقى نفس من التبعية بمراجعة رؤساء، وألقى نفسه من التبعية
بمشاورة مرءوسية فقد عرف كيف ينبغي أن يطيع، وعرف كيف ينبغي أن
يطاع، وعرف ما يتوق كل جندي أن يعرفه حين يؤمر وهو توضيح ما يطلب
منه وما يطلب من غيره، وتقرير مكان التبعات حين تقسم التبعات.

ولقد كانت له مخالقات ليست من قبيل المراجعة ولا المشاورة التي تعمل
فيها الروية عملها، أو تختلف مذاهب الآراء فيها.

(١) الجلواز: الشرطي.

كانت هذه أيضاً من مخالقات "الجندی" التي يبلغ إليها كلما غلبته الحماسة وثار به الحمية .

فلما كان يوم أحد جاء أبو سفيان ينادى على مسمع من المسلمين :
أفيكم محمد؟ فقال رسول الله : لا تجيبوه!

فعاد ينادى مرتين : أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه!
فسأل ثلاثاً : أفيكم ابن أبي قحافة^(١)؟ فسكنوا

ثم سأل : أفيكم ابن الخطاب؟ وكررها ثلاثاً . فلما لم يسمع جواباً قال لقومه : أما هؤلاء فقد كفيتموهم!^(٢)

كثير على عمر أن يحتوى صبره في هذا الموقف أكثر مما احتواه . فلما قالها أبو سفيان حتى صاح من مكانه : "كفرت يا عدو الله . ها هو ذا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وأنا أحياء! ولك منا يوم سوء!" .

هذه مخالفة لا مراجعة فيها ولا مشاورة .

لكنها من مخالقات الجند، ولهم ولا شك مخالقات كما لهم طاعات .
نعم كانت له مخالقاتهم وطاعاتهم، وكانت له كذلك فكاهاتهم وأهواؤهم التي هي أخص بهم من سائر الفكاهات والأهواء .

فكانت تعجبه الفكاهة التي توحى إليه معنى مضحكاً فيه صراحة وخشونة، ومنها الفكاهة التي نسميها اليوم "بالنكات العملية"

فرغ رسول الله يوماً من بيعة الرجال وأخذ في بيعة النساء، فاجتمع إليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة^(٣) متنكرة، لما كان من صنعها بحمزة^(٤)

(١) هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

(٢) حدث هذا بعد نهاية المعركة . وقد ظن أبو سفيان أنهم ماتوا في الواقعة .

(٣) أى تلبس النقاب وهو الحجاب .

(٤) هند : زوج أبي سفيان، وهى التى شك بجثة حمزة بعد أن قتل فى أحد'

رضى الله عنه، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بصنيعها. فلما دنون منه لبياعه قال عليه السلام: تبايعنى على ألا تشركن بالله شيئاً.

قالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال، وستؤتيكه.

قال: ولا تسرقن.

قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة^(١) والهنة ما أدري أكان ذلك حلالاً لى أم لا.

قال أبو سفيان وكان شاهداً: ما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل.

فقال رسول الله: وإنك لهند بنت عتبة!

قالت: أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف، عفا الله عنك.

فمضى رسول الله فى أخذ البيعة وعاد يقول: ولا تزنين.

قالت: يا رسول الله هل تزنى الحرة؟

قال: ولا تقتلن أولادكن!

قالت: قد ربيناهم صغاراً وقتلهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب^(٢)، وكان قليل الإغراب فى الضحك، فإن استغرب ضاحكاً بين حين وحين فإنما مثل هذه الفكاهة.

وعلى هذا النحو فكاهته مع خادمة أسلم وابنه عاصم: دخل عليهما وهما يغنيان غناء يشبه الحداء فوقف يستمع ويستعيد. وشجعهما إصغاؤه واستعادته فسألاه: أينما أحسن صنعة؟ قال: مثلكما كمثلى حمارى العبادى.

سئل: أيهما شر؟ فقال هذا ثم هذا!

(١) الهنة: مؤنثة وهو الشيء.

(٢) استغرب فى الضحك: بالغ فيه.

ومن فكاهته القوية تلك المزحة المرعبة التي أطار بها لب الخطيئة ليكف عن هجاء الناس . فدعا بكرسى وجلس عليه ودعا بالخطيئة فأجلسه بين يديه ، ودعا بأشفى^(١) - أى مثقب، وشفرة، يوهمه أنه سيقطع لسانه، فضج الخطيئة وتشفع الحاضرون فيه، ولم يطلقه حتى أخذ عليه عهداً لا يهجون أحداً بعدها، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم . فما هجا أحداً بعدها وعمر بقيد الحياة .

تلك أمثلة من فكاهته الخسنة التي تعهد في طبيعة الجند، وهى فكاهة لا يطمع منه فى غيرها .

وشاءت الجاهلية أن تورطه فى بعض أهوائها فكان هواه منها معاقرة الخمر يحيها ويكثر منها . وقد نرى أنه هوى قريب من مزاج الجند غير نادر فيهم ، إذا الخمر نوافق ما فيهم من سورة طبع وتشغلهم عن الخطر أو تعييبهم عليه ، وتصاحبها فى كثير من الأحياء ضجة بالفوانها .

وقد أحب ضجة الدفون وهى فى سياق هذا الهوى ، وظل يحبها بعد إسلامه وخلافته وإن كرهها فى غير الأعراس . . فسمع ضوضاء فى دار فسأله : ما هذا؟ قيل له : عرس! فقال : هلا حركوا غرابيلهم؟ أى الدفوف!

على أنه كان يحب الغناء جملة ويطيل الإصغاء ما لم يشغله عن مهم من أمر دينه أو سياسته . فسمع صوت حاد وهم منطلقون إلى مكة فى جوف الليل فما زال يوضع راحلته^(٢) حتى دخل بين القوم يسمع إلى مطلع الفجر ، ثم قال للقوم : إيه! قد طلع الفجر . أذكروا الله .

فطبيعة الجندي فى الفاروق تامة متكاملة بأصولها وفروعها . ويندر أن تتم طبيعة شاملة فى رجل واحد إلا أن يكون كعمر فى أصله الطبع وصراحته

(١) الأشفى: المثقب، والشفرة، والسكين العظيمة

(٢) يوضع راحلته: يحملها على السير السريع .

وخلوصه واتساقه، فلا يحذل منه جزء جزءاً، ولا تقبل منه وجهة حيث تدبر أخرى، وحيث لا عجب أن تم له طبيعة واحدة بالغة بلغت من تعدد العاصر والألوان والشيئات. كما أنه لا عجب أن يشبه الولد أباه لأنه أصيل النسب، بالغاً ما بلغ التعدد في مشابه الأخلاق والجوارح والأعمال.

ولهذه الطبيعة أثرها في أمور لا تمت إليها على ظاهرها. كأثرها في تحريم رق العربي وفي إخلاء الجزيرة من غير العرب، فهي شنشنة الغيور على الخوذة، الموكل بحماية الذمار^(١).

ولها أثرها في سياسته مع الأمم حيث يأمر الجند بتصديق كلمة الشرف والبر بالوعد ولو كان باليد أو نبأة من صوت. فقد أوجب على قادته وجنوده إذا نزلوا بلاد الأعاجم فبدرت منهم إشارة أو نبأة يحسبونها عهداً أن ينجزوا هذا العهد ولا ينكصوا فيه، ولو أتيح لهم أن يتعللوا بجهل اللغة وغرابة العادات والمصطلحات. وإنك على الجملة لا تعرض عملاً من أعمال الفاروق العامة والخاصة على هذه الطبيعة إلا وجدت له قراراً فيها ووجدت عليه صبغة منها.

فهي بلا ريب أقرب مفتاح لهذه الشخصية العظيمة، وبها تتميز خصائصه التي لا يشترك فيها أناس مطبوعون على غيرها وإن كانوا عظماء أقوياء.

وقد أسلفنا الإشارة إلى الإيمان القوى وقلنا إنه ضابط لأخلاقه وسوارته، وليس بمفتاح يكشفها ويفتح مغالقها، لأن الإيمان القوى نفسه يحتاج في فهمه وتميزه إلى المفتاح الذي يفرق بين ضروب الإيمان عند الأقوياء، وليست القوة كلها كلما لا يخفى معدناً واحداً في البواعث والمظاهر والآثار.

(١) الذمار: ما يلزمك حمايته وحفظه والدفاع عنه، والحرم والأهل والخوذة.

وهكذا كان إيمان عمر في سلوك دنياه وسلوك دينه: كان إيمان الطبيعة الجندية في حالتها المثلى .

ففى سلوك دنياه كان يعيش أبداً عيشة المجاهد فى الميدان . . فأثر الشظف وقع منها بأقل ما يكفيه ولا غنى عنه .

وفى سلوك دينه كان موقفه بين يدى الله أبداً كموقف الذى يعلم أنه لا يلقى مولاه إلا ليؤدى الحساب على الكثير والقليل . . فإن تجمه المساحة جاءت عفواً لا ينسبه تحضير الحساب .

وكان معتمداً على الغيب موصولاً بالقدر يركن إليه كأنه يراه بعينه . ومن أدب كل طبيعة تستحضر الموت أن تنظر إلى الغيب، وتستطلع طلعة^(١) وتنتظر منه الحماية والهداية .

فاشتهر عن كثير من كبار القادة أنهم يؤمنون لهم بنجم سعد يلحظهم، أو بغاية أجل لا يعجلون عنها، أو بإلهام يهديهم إلى النجاة ويرون أماراته وعلاماته فى الرؤى والهواتف وكلمات الفأل والبشارة .

وكان عمر يتفائل بالأسماء وينظر فى الرؤى والمنامات، ويروى عنه فى روايات متواترة أنه أنبىء بموته فى منام، وأنه رأى كأن ديكا ينقره نقرتين، وفسروا له الديك برجل من العجك يطعنه طعتين .

وروى محارب بن دثار عنه أنه سأل رجلاً: من أنت؟ فقال: قاضى دمشق . قال: كيف تقضى: ألقى بكتاب الله . فسأله: وإذا جاءك ما ليس فى كتاب الله؟ فأجابته: ألقى إذا بسنة لله، فسأله ثانية: وإذا جاءك ما ليس فى سنة رسول الله؟ قال: أجتهد برأى وأوامر جلسائى . فاستحسن قوله وأوصاه إذا جلس للحكم أن يدعو الله قائلاً: " أنى أسألك أن أفتى بعلم، وأن ألقى بحلم، وأسألك العدل فى الغضب والرضا " .

(١) يقال: فلا أطلعنى على الأمر، أو أطلعنى طلعة بكسر الطاء .

ثم رجع القاضى بعد فترة فسأله عمر: ما أرجعك! قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان، مع كل واحد منهما جنود من الكواكب. فسأله: مع أيهما كنت!

فقال: مع القمر!!

فتأمل قليلا ثم ذكر قوله تعالى: " وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة" ثم قال: لا تلى لى عملا^(١).

هذه رواية من روايات كثيرة عن المنامات ونظره فيها، لا ندرى مبلغاً من الصحة فى تفصيلاتها، ولكنها كلها تدل على الغرض الذى قصدنا إليه وهو استهداء الغيب من طريق الرؤى والعلامات، إلى جانب الإيمان القوى الذى لا يسهوا عن عالم الغيب طرفة عين.

ومن الحق أن نضيف هنا أن الإيمان القوى ليس بمستغرب فى الطبيعة الجدية، بل ربما كانت طبيعة الجهاد أقرب شىء إلى طبيعة الإيمان.

وأن نضيف هنا استدراكا آخر لعله أدهى إلى البحث من القول فى الجهاد والإيمان، وذلك أن العدل لا يناقض طبيعة الجند عامة، وأن طبيعة الجند لا تستلزم العدوان فى كل محارب، ولا سيما المحارب نضحا^(٢) عن دين وفقاً لشريعة.

فالعدل يفتقر إلى شجاعة وشرف، وهما خصلتان مطلوبتان فى الجندى المطبوع فأما الشجاعة فى الرجل العادل فتحميه أن يحابى الأقوياء وهو جبن، وأما الشرف فيحميه أن يجوز على الضعيف وهو خسة، ولا تناقض بين الحصل.

(١) لا تلى: لا هنا وليست ناهية، فالفعل بعدها مرفوع.

(٢) فضحا: دفاعاً.

إنما المحارب المعتدى هو الذى "يحارب لحسابه" كما يقولون، أو يحارب لنفسه مرضاة لطمعه وذهاها مع نزواته، ومن هذا الطراز الاسكندر وتيمور ونابليون.

أما المحارب الذى تقيده إرادة غير إرادته، ويحكمه قانون غير هواه، فالحرب من مثله واجب يلام على تركه وليست بجريمة يلام على اقترافها. وقد يرى هؤلاء أن أشرف الجهاد جهاد النفس والهوى قبل جهاد الخصوم والأقران كما رأى عمر بن الخطاب.

ومصداق ذلك ظاهر فى كل قائد تدعوه إلى الحرب إرادة إله أو إرادة آمة، أو إرادة ضمير له قانون. فطبيعة الجندى فى هؤلاء لا تناقض العدل إلا كما تناقضه طبيعة الفيلسوف أو طبيعة الفن أو طبيعة التصرف فى شئون المعاش، ولا تناقض بينه وبين واحدة منها، أو هى جميعاً فى هذه الخصلة سواء.

هؤلاء لا يحاربون إلا مكرهين، إذا حاربوا لم يحاربوا لبغى ولا لتكيل ولو كانوا فى ميدان القتال، وستتهم هى سنة عمر حين حذر المجاهدين أن يعتدوا لأن الله لا يحب المعتدين. ثم قال: "لا تجنّبوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور"^(١)، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليداً، ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا، وابشروا بالإرباح^(٢) فى البيع الذى بايعه به، وذلك هو الفور العظيم.

وذلك هو الجندى فى حالته المثلى.

وذلك هو المفتاح الصادق الذى لا نعلم مفتاحاً أصدق منه لخلائق هذا الجندى العادل الكريم.

(١) الظهور: النصر.

(٢) الإرباح: الحصول على الربح.